

أثر الإسلام

هذه صورة مجملة للمجتمع البدوي الجاهلي الذي كان منعزلاً في جزيرته ولما جاء الإسلام غير من كل هذا ، فطالبهم بالجهاد ، والغزى في ممتلكات الفرس والروم ، فخرجت جماهيرهم كالسيل المندفع فأزّلوا الأولى وخضعوا الثانية، واحتلوا ما اتسع من الأرض يفلحونها ويزرعونها ، واستوطنوا المدن يتمتعون بخيرها ونعيمها وأنهارها وسهولها ، فتبدلت بهم الحال ، ولم تعد حياتهم حبساً على المطر يتشوقونه في الجو المتلبد ، ويتسمعون في الريح المزجى وهكذا خلصهم الإسلام من خرافات الجاهلية وأوهامها التي قد رانت على قلوبهم ، وغير نفسياتهم في عقائدها وعباداتها ، وعاداتها ، وأخلاقها .

أشرنا فيما سبق إلى أن الحياة العربية في أواخر القرن السادس المسيحي وأول القرن السابع قد أخذت في التطور سياسياً ، ودينياً ، وأدبياً واجتماعياً وبدأت تستحيل أثناء هذه الفترة ، وأتى عليها فلم يغيرها طفرة وإنما قواها ، وعدل اتجاهها بتعاليمه الدينية الحرة فأخذ يصقلها ويدفعها إلى الأمام بالتدريج ، وآية ذلك أن بقيت عادات جاهلية ، وتقاليد قديمة شائعة ، مدة القرن الأول للهجرة ومن مظاهر ذلك هذه الردة التي أعقبت وفاة الرسول ﷺ – ثم هذه الظواهر التي نراها في حياة الحطيئة ، وفحول الشعراء الأمويين ، وعند جماعة من الولاة الإسلاميين الذين تجاهروا بالإثم والعنف فلامهم الخلفاء ووقفوا بهم عند حد الاعتدال كل ذلك يدل على أن الحياة الجاهلية لم تُمَح من نفوس العرب تماماً بمجرد ظهور الإسلام ، وغنما بقيت آثارها مدة من الزمان .

ففى الناحية السياسية ، نجد أنها استمالت إلى جهاد باللسان وبالسلاح فتوح وحررب ، فلا قتال إلا فى نشر دين الله ، ولا غزى إلا فى إعلاء كلمة الله .
وفى ناحية الدين ، فقد استقر الإسلام واعترف به العرب واعتنقوه؛ وتمت لهم وحدتهم الدينية .

بقيت الناحية الأدبية التى تعيننا هنا فقد أصبحت متصلة بالقرآن الكريم ، وكلام الرسول ﷺ – أولاً ، وبهذه النهضة الإسلامية ثانياً . لقد بهرهم القرآن ببديع أسلوبه ، ومحكم آياته ، وتلاؤم فواصلة ، فخرى؛ أمامه ساجدين وطفقوا به يستعينون ومنه يقتبسون ، ثم رأوا فى كلام الرسول – وهو منهم – فصاحة متدفقة ، وبلاغة متمكنة يخاطب كل قبيل بأعلى ما عرف فى لهجته كأنه نشأ فىهم ورئى فى أوساطهم ، فأخذوا يقصدون قصده ، وينهجون نهجه حتى ازديانت ألفاظهم بيريح ألفاظه وأشرقمت معانيهم بغير معانيه .

وكان من أثر الإسلام أن هجرت ألفاظه وجدت ألفاظ وماتت ، وماتت معان ونشأت معان وعدل من أغراض إلى أغراض وما هذا بالمحتاج إلى إيراد للشواهد وضرب الأمثال للأمثال ، إذ سيأتى فى البحوث التالية .

الأدب الإسلامي (تكوينه - عوامله)

لما كان الأدب صورة الحياة السياسية والاجتماعية والفردية كان من الطبيعي أن يتأثر بهذه الحياة الجديدة التي أحدثها القرآن في الحياة الإسلامية الجديدة التي ظهرت في تدين الأدب العربي وتحضره، فقد كان أدباً بدوياً يتناول الصحراء وما يلابسها من حيوان ونبات وجماد، وهو بذلك فعل ساذج جاهلي لا تجد فيه تفكيراً مضطرباً عميقاً، ولا خيالاً مركباً ولا عاطفة عميقة، فأخذ الإسلام - والقرآن - بيده وأحله محالٍ جديدة في وادي النيل ودجلة والفرات وبلاد الروم والفرس، وبذلك أخذ يكتسب من هذه البيئات والشعوب تمديناً وتحضراً بلين العيش ورقمة المشاعر، وكثرة المعارف فوجدت في الأدب الإسلامي فنون وموضوعات حضرية تتصل بالسياسة والدين والتقاليد الجديدة، كما وجدت أساليب ومعاني طريفة هي عنوان مدنية جديدة.

وانتشر الأدب في هذه المواطن، وقام بأسباب الحياة فيها فصار فيما بعد أدب بلاد الشام والعراق ومصر وإيران وشمالي أفريقيا، وقضى على الآداب واللغات القومية وحل محلها وصار يحمل اسم الأدب الإسلامي بعد ما كان يسمى الأدب العربي بما احتل من حضارات، واحتمل من آفاق.

ومر على تكوينه تحرر الفكر البشري ودعوته إلى التفكير والتخلي عن تقاليد الجاهلية وأوزنها إلى تعليم الإسلام وأخوته العامة التي تؤلف بين النفوس والشعوب ولا تتعصب في وجه أهل الكتاب، الذين عاشوا مع المسلمين في حوار وتعاون وأخوة لا ينكرها الإسلام، كما كان للعلوم الإسلامية والنهوض بها - وذلك بسبب القرآن خدمةً لتحقيق دعوته وتشريعه أو لمجاراته حضارته الواسعة

المتشعبة ، أثر عظيم في الأدب الإسلامي ، كما كان للحركات الفكرية ، والثقافات الأجنبية ، الفارسية والرومية والهندية ، أثر في الأساليب العربية .

وهناك آثار مباشرة ظهرت في الأدب الإسلامي ، وكان لها طابع هذا العصر الجديد الذي يميزه من العصر الجاهلي ، ويمكن إجمالها فيما يلي : -

١- اتخاذ الإسلام نفسه موضوعاً للأدب ، بالجدل حوله والدعوة إليه ، وتناول أحداثه ، وقد ظهرت هذه الظاهرة منذ الهجرة وقيام الغزوات ، فصار الدفاع عن الإسلام ومهاجمته مشغلة شعراء " قريش " و" الأنصار " (مكة والمدينة) ثم استحوطت الفكرة فيما بعد ، فصارت المعركة بين الإسلام وشعبة (من خوارج وشيعة ، وأمويين وعلويين وزبيريين إلخ) .

٢- هذه الفنون التي استحدثتها الإسلام ، وأخصها الشعر السياسي والهجائي والغزلي ، فقد كانت هذه الفنون بأوضاعها وخواصها الممتازة ظاهرة إسلامية دعت إليها أسباب ، تتناول شرحها بالتفصيل فيما بعد .

٣- وبين الديانات والشعوب الأخرى حين نهض الموالى ، وظهرت مسألة الشعوبية قوية في القرن الثاني والثالث ، ثم تحققت مظاهرها لما نشأت الآداب والحكومات القومية .

وقد ظهرت هذه منذ واقعة " صفين " واستمرت إلى نهاية العصر الأموي وأحدثت آثارها في الشعروفي النثر ، أى فى هذه الخطب القوية الجزلة عند الخلفاء والأمراء ورجال الأحزاب المختلفة ، وفى الجدل حول المذاهب والآراء السياسية والدينية ، وفى المراسلات المطولة الجامعة ولاشك أن للقرآن فضلاً عظيماً فى بروز هذه الفنون وظهورها حقيقة ذات سهولة ورقة من جهة وجزلة وقوة من جهة أخرى .